﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 69 - 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن ذِكر الأحداث في نهايةِ الحياةِ الدُّنيويَّة إلى غايتها في الحياة الأبديَّة

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة مشهدَ الصَّعق الَّذي يلحقُهُ مشهدُ الإحياءِ بعد الموت، ثم بيَّنت أنَّهم ينظرون ما سيكون لهم بعد الإحياء؛ كان مِن المناسبِ جدًّا بيانُ حال الأرض الَّتي استقرّوا فوقها، وما سيكون فيها مِن أحداثٍ جسام، تبدأ بالإشراقِ بنورِ ربِّها، ووضع الكتاب والمجيء بالشُّهداء، للقضاء بين العبادِ بالعدل الإلهيِّ، وللجزاءِ بتوفية كلِّ نفسٍ أعمالها، فالمناسبةُ في تسلسل الآيات تظهر جليَّة في الانتقال مِن مشهد الفناء الكوني الشّامل، إلى مشهد البعث والنّور، ممّا يُبرز عظمةَ التَّحوُّل مِن نهاية الحياة إلى بداية الحساب والعدالة الإلهيَّةِ، فهو انتقالٌ من بيان حدث النَّفخ في الصّور في النَّفختين، إلى بيانِ غايتهما، وهو القضاء بين العباد، والحساب والجزاء.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾: (شرق) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ عَلى إضاءَةٍ وفَتح، مِن ذَلِكَ شَرَقَتِ الشَّمسُ؛ إذا طَلَعَت، وأشرَقَت؛ إذا أضاءَت، والشُّروقُ: طُلوعُها، ويَقولونَ: لا أفعَلُ ذَلِكَ ما ذَرَّ شارِقٌ، أي: طَلَعَ، يُرادُ بِذَلِكَ طُلوعُ الشَّمسِ[1]، والشُّروقُ: خلاف الغروب، كالطُّلوع، وهو يُقال لكلِّ شيءٍ طلع من قبل المَشْرِقِ[2]، ويُقال: شرقَ الشَّيءُ يشرق؛ إذا امتلأ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(2) الخليل، العين: (شرق).

حتى كاد يفيضُ[1]، والمعنى في الآية: هو الإضاءةُ مع زيادة، وليس الإضاءة وحدها، وكأنَّ الأرضَ حين إشراقها بعدل اللّه، لا يبقى منها جزءٌ إلّا دخله ذلك النّور بإشراقةٍ، فهو أعمُّ مِنَ الإضاءة.

2) ﴿بِنُورِ﴾: (نور) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ واضطِرابٍ وقِلَّةِ ثَباتٍ، مِنهُ النّورُ والنّارُ، سُمّيا بِذَلِكَ مِن طَريقَةِ الإضاءَةِ؛ لأنَّ ذَلِكَ يَكونُ مُضطَرِبًا سَريعَ الحَرَكَةِ، وتَنَوَّرْتُ النّارَ: تَبَصَّرتُها[2]، فالنّور: الضّياء، والفعل: نارَ وأنارَ ونَوْرًا وإنارةً، واستنار، أي: أضاء، والنَّوْر: زَهر الشَّجَر قبل أن يتحوَّل إلى ثمرةٍ، والفِعْلُ: التَّنوير، وتنويرُ الشَّجَرة: إزْهارُها، والنّوّار: نَوْرُ الشَّجَرِ، وتنوَّرْتُ نارًا: قَصَدْت إليها، والنّائرةُ: الكائنةُ تقعُ بينَ القَوم[3]، والمعنى الَّذي سيقت له هذه الآية: هو الإضاءة الكاشفة، الَّتي تعمُّ الأرضَ، فهي إشراقٌ وزيادةٌ.

3) ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: (شهد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ، لا يَخْرُجُ شَيءٌ مِن فُروعِهِ عَنِ الَّذي ذَكَرناهُ، مِن ذَلِكَ لفظُ الشَّهادةِ، فهو يَجْمَعُ مع الحُضورِ، العِلْم، والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شَهادَةً، والمَشْهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ، ومِنَ البابِ: الشُّهودُ: جَمْعُ الشّاهِدِ[4]، والشُّهداء جمعُ شاهد، وهم الَّذين يُستَشهَدون يوم القيامة، وهو عامٌّ في جميع الشُّهداء مِن الملائكة، وأمَّة محمَّد ﷺ، والجوارح، والمكان، وأيًّا ما كان فهُم الشُّهداء، ومعنى الشُّهداء في الآية هو الشاهد حقيقة، وهم الَّذين يُؤتى بهم إلى موقف الحساب ليُدْلوا بشهادتهم أمام الملكِ الجبّار ﷻ.

4) ﴿وَقُضِيَ﴾: (قضى) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِهِ لِجِهَتِه، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أحكَمَ خَلقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّهُ سُبحانَهُ في ذِكرِ مَن قالَ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72]، أي: اصنَعْ واحْكُم، ولِذلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنَّهُ يُحكِمُ الأحكامَ ويُنْفِذُها[5]، وقضى في اللُّغة

(1) الصَّحاري، الإبانة في اللغة: 4/ 753.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الخليل، العين: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشَّيء وتمامه، والمعنى في الآية الكريمة: هو منتهى الإحكامِ والإتقان لذلك القضاء الَّذي هو فصلٌ بين تلك الأنفس جميعًا.

5) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلى إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرجِعُ كُلُّ فَرعٍ إلَيهِ بِجَودَةِ الاستِخراجِ وحُسنِ التَّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ وجَبَ، قالَ الكِسائيُّ: تقولُ العَرَبُ: "إنَّكَ لَتَعرِفُ الحِقَّةَ عَلَيكَ، وتُعفي بِما لَدَيكَ"، ويَقولونَ: "لَمّا عَرَفَ الحِقَّةَ مِنّي؛ انكَسَرَ"، والحاقَّةُ: القيامَةُ؛ لأنَّها تَحِقُّ بِكُلِّ شَيءٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، ومعنى الحقِّ في الآية الكريمة: الحقُّ الَّذي هو خلافُ الباطل، وذلك أنَّ هذا الموقفَ كلَّهُ حقٌّ في القضاء والتَّوفية، فلا ظلمَ اليوم.

6) ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾: (وفى): كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى إكمالٍ وإتمامٍ، ومِنهُ الوَفاءُ: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ووَفَى: أوفَى، فهوَ وفيٌّ، ويقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ، واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخَذتَهُ كُلَّهُ، حَتَّى لَم تَترُكْ مِنهُ شَيئًا، ومِنهُ يُقالُ لِلمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّهُ[2]، ويُقال: وفى يَفي وفاءً، وأوفى يوفي إيفاءً؛ لُغَتانِ فصيحتان، فَأمّا أوفَى على الشَّيء؛ إذا علا عَليهِ، فأوفَى لا غير[3]، وحقيقةُ التَّوفية: إكمالُ الجزاء وإتمامه لكلِّ نفسٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أرضُ المحشرِ تُشرقُ بنورِ الله عدلًا ورحمةً

تُبيِّن الآيتان الكريمتان أنَّ الأرضَ بعد النَّفخة الأخرى ستُشرق بنورِ ربها، على أرض المحشرِ، وهي الأرضُ المبدلة من الأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وفى).

المعروفة؛ إذ هذه الأرضُ عَرْصة القيامة، وليست بأرضنا الآن؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48]، وإشراقها حين ذلك أنَّها أضاءت عدلًا بنورِ رَبِّها، المتجلّي لفصل القضاء، فالنّور الَّذي هو مِن أوصافه قائمٌ به، وإنَّما وُضِع الكتابُ، ودُعي النَّبيون والشُّهداء؛ لتكميل الحُجَّة وقطع المعذرة، لا لحاجة إليهم في علمهِ تعالى بما يعملون، وما يقولون، وأكمل اللّه جزاء كلِّ نفس، خيرًا كان عملُها أو شرًّا[1].

وترشدُ الآيتانِ إلى أنَّ الإنسانَ ينبغي له الاحترازُ مِنَ العمَل بما لا يُرضي اللّه تعالى، وأنَّه يَجب عليه أن يَحذَر منه؛ لأنَّ اللّه تعالى يَعلَمُ ذلك، والإنسانُ الحيُّ القَلْب لا شكَّ أنَّه سيَخجَل؛ إذا عَلِم أنَّ اللّه تعالى يَعلَم عمَلهُ، ثمَّ عمِل ما لا يُرضيه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو:

استكمالُ تصويرِ المشهد الكلّي ليوم القيامة

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾؛ لعطفِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ فهو من عطف القصّة على القصّة، أو من عطف الأحداث على الأحداث، إظهارًا لتسلسل المشاهد، وإشارةً إلى أنَّ إشراق الأرض بنور ربِّها جزءٌ من مشهد عظيم ومهيب، يشمل الحشر، والحساب، وظهور العدالة الإلهيَّة، فالعطفُ بالواو له دلالة تُسهم في استكمال تصوير المشهد الكلي ليوم القيامة.

بلاغةُ استعمال مفردةِ الإشراق:

الإشراقُ إشعارٌ بأصل النّورِ وسعة انتشاره

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإشراق في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ للتَّعبيرِ عن شدَّة الوَضاءة والنّور، وكثيرًا ما يُستعار النّور في القرآن للهدايةِ والحقِّ، وتظهر نكتتها في

(1) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 35.
(2) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 477.

جعل النّور يشرق في الأرض، ليعمَّها بالسَّكينة والطُّمأنينة، وهو يدلُّ على الوضوح، والإشراق، والتَّجلّي، وهو صورةٌ حسيَّة تدلُّ على عظمة العدلِ الإلهيِّ وانتشاره، وعدلَ في هذا السّياق عن مادَّة الفعل أضاء، فلم يقل: (وأضاءت)؛ لبيانِ مصدر النّور، فإنَّ الإشراقَ له مصدرٌ حقيقيٌّ، وهو ما يوحي بإزالة الظُّلمات الحسّيَّة والمعنويَّة، ممّا يعكس الكمالَ الإلهيَّ والعدالة المطلقة في ذلك الموقف.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

حتميَّةُ الوقوعِ وقطعيَّة البعث

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾، وهي صيغةُ الفعل الماضي، الَّذي اتَّصلت به تاء التَّأنث السّاكنة، وهو رباعيٌّ مزيد على الثُّلاثي يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ وفَتْحٍ[1]، والإشراقُ سيكون في المستقبلِ، وذلك لبيان قطعيَّة الوقوع، وأنَّه متحقِّق لا محيدَ عنه، فإنَّ توالي الإخبارِ عن الأحداث بصيغة الماضي يحتِّم وقوعَها.

وقد آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾ مُرادًا بهِ الاستقبال والاستمرار، فلم يقُلْ: (وستشرق)؛ وذلك لتحقّقِ الوقوع، والفعل الماضي قد يحتمل غيرَ المضيِّ[2]؛ إذا اقترن بما يدلُّ على ذلك من السّياق، وهنا قد خرج الماضي عن غرضِه الحقيقيِّ إلى غرضٍ مجازيٍّ، فهو استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ إذْ شُبِّهَ فعلُ المستقبل بالفعل الماضي، وصُرِّحَ بالماضي؛ لبيان تحقُّقِ وقوعه وحتميَّته.

لفتةُ المجاز العقليِّ في إسناد الإشراق للأرض:

شدَّةُ الإشراقِ إزالةٌ لكلِّ الظُّلمات وانتشارٌ لنورِ العدلِ المطلق

أسندَ الحقُّ سبحانه في هذا السّياق فعلَ الإشراق إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، والإشراق ليس فعلًا للأرض حقيقةً، وإنَّما هو مِن باب المجاز العقلي؛ إذ الَّذي يُضيء الأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 264.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 309.

حقيقةً هو الله ﷻ، يُنير الأرض بنورهِ تعالى حين يَتجَلَّى للقَضاء بين العِباد بالعدل، ولكن أُسنِد الإشراق إلى الأرض؛ لتجلّي نور الله عليها وجعْلِها مشرقةً بنوره الكاشفِ للحقائق من غير شمس ولا قمر[1]، فهو مِن إسناد الفعل لمفعولِه لا لفاعلِه، وهذا الإسنادُ يُبرز عظمةَ النّور الَّذي ليس كأيِّ نورٍ مألوفٍ، بل هو نورُ الله تعالى وعدله في هذا الموقف الذي يملأ الأرض إشراقًا وجلالًا في مشهدِ الحساب[2].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

تعريفُ الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، للعهدِ الذِّكريِّ الضِّمنيِّ، فقد تضمَّن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، أنَّهم قيامٌ على قرار، فإنَّ القيام يستدعي مكانًا تقوم فيه تلك الخلائق، وهو أرضُ الحشر، وفُسِّرت بأنَّها الأرضُ البيضاء النَّقيَّة، وليس المرادُ الأرضَ التي كانوا عليها في الدُّنيا، فإنَّها قد اضمحلَّت[3]، فهي أرضٌ معروفةٌ ومخصوصة لهم، فقد أخبرهم ربُّهم بأنَّها غيرها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 48]، فأرضُ القيامة تختلف عن الأرض الدُّنيويَّة.

الإشـراقُ يعـمُّ كلَّ أرجاءِ الأرض المخصوصة

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

المعنى الذي قد لا يفارق الباء هو المصاحبة والملابسة، وعلى هذا يكون المعنى: وأشرقت الأرض مصاحبة لهذا النّور الرّبّانيّ، ويمكن أن تكون الباءُ سببيَّةً، وتفيد أنَّ إشراق الأرض لم يكن بنور مادّي معتاد، بل هو نورٌ خاصٌّ صادر عن عظمة الله وعدله.

بلاغةُ الاحتباكِ في مفردة النّور:

لفظُ النّورِ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه حذفٌ تقابليٌّ؛

إشـراقُ الأرض بنـور الـلـه بعد إظلامها

(1) ابن الأحنف، البستان في إعراب القرآن: 2/ 369.
(2) الهمذاني، الفريد: 5/ 471.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 66.

إذ إنَّ الأنوارَ الموجودة في الدُّنيا تذهب يوم القيامة، وتضمحلُّ، فقد أخبر تعالى بأنَّ الشَّمس تُكوَّر، والقمر يُخسَف، والنُّجومَ تتناثر مِن ظاهر وجهِ السَّماء، وتندثر، ويكون النّاس في ظلمةٍ، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربِّها، عندما يتجلَّى سبحانه وينزل للفصل والقضاء بينهم، وفي ذلك اليوم يجعل اللّهُ للخلق قوَّةً، وينشئهم نشأةً يَقوَونَ على ألّا يحرقَهم نورُه الرَّبّاني، ويتمكَّن المؤمنون أيضًا من رؤيته، وإلّا فنورهُ تعالى عظيمٌ، وحجابُهُ النور لو كشفه؛ لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلقهِ[1].

دلالةُ استعمالِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:

الرِّعاية والتَّدبيرُ مناسب لسياق المشهد الأخروي

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوان الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، دون اسم الجلالة؛ لحكمةٍ بلاغيَّةٍ ومعنويَّةٍ عميقةٍ، تتناسبُ مع سياق الآية ومضمونها، فلفظ الرُّبوبيَّة يدلُّ على الرِّعاية والتَّدبير والهيمنة الكاملة، وهو أنسبُ لسياق يوم القيامة ذي الرَّهبة والدَّهشة، ولا يخفى ما في الرُّبوبيَّة من معنى الرَّحمة والعدل معًا، وهو ما يتناسب مع إشراق الأرض يوم القيامة، فيظهر أثرُ ربوبيَّتِهِ الشّاملة للخلق، في مشهدٍ مليء بالهيمنة والعظمة.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير:

العدلُ زينةُ الأرض والجزاءُ مآل العبادِ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (ربٍّ) إلى الضَّمير العائد على الأرض في قوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ لتشريف المضافِ إليه، والإضافة بمعنى اللّام، أي: بنور خاصٍّ خلقه اللّه فيها لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب كشمس أو غيرها، ولأنَّه ربُّها وخالقها، وهو الَّذي يعدل فيها، وينصب موازين قسطهِ، ويحكم بالحقِّ بين أهلِها، ولا ترى

(1) مسلم، صحيح مسلم: (179)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 729، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كدر).

أزينَ للبقاع مِنَ العدل، ولا أعمر لها منه، وهو ذو دلالةٍ واضحة أنَّ مَن يعدل في هذه الأرض هو ربُّها وخالقها[1].

دلالة واو العطف:

الكتابُ دليلُ الحساب العادل والجزاء المقسط

الواو في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: عاطفةٌ، وهي تُظهر ترتيب الأحداث يوم القيامة ممّا يدلُّ على عظمة المشهد، وتعدُّد أحداثه، في وقتٍ واحدٍ، والعطفُ هنا يربط بين إشراقِ الأرضِ بنور اللّه ووضع الكتاب، فيُبرز اتِّصال النور الإلهيِّ بالعدالة المطلقة، حيث يُقدَّم الكتابُ باعتبارِه دليلًا للحساب، ويضيف ترابطًا بين المشاهد، ممّا يعكس شموليَّة الموقف وهيبته، ويُذكِّر بأنَّ كلَّ هذه الأحداثِ جزءٌ مِن تدبير اللّه الكامل ليوم القيامة.

فائدةُ استعمالِ مفردة (وُضِعَ):

وضْعُ الكتابِ كنايةٌ عن الجزاءِ العادل

استُعمِلَ لفظُ (وُضِعَ) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لتصويرِ مشهدِ البتِّ والحتم فيما سيكون مِن حسابِ النّاس، فإنَّ وضعَ الكتابِ يُمثِّل إحضارَهُ ووضعه لتحقيقِ الحساب والحُكم بين النّاس، فاستخدامُ مادَّة (وُضِع) ترسمُ صورةً حسّيَّة تجذب الذِّهن، وتجعلُهُ يتخيَّل الكتاب حاضرًا ومرئيًّا أمام الجميع، ممّا يجعل القارئ، وكأنَّه يشاهد الموقفَ، وهذا يوحي بأنَّ كلَّ شيءٍ قد أُعدَّ، وحُسم، وأنَّ لحظة الحساب قد بدأتْ بلا رجعة، وجاء التَّعبيرُ بالوضع، ولم يأتِ بالحطِّ؛ لأنَّه أعمُّ منه في الدَّلالة على إبراز أعمالِ العباد[2]، ووضْعُ الكتاب هو كنايةٌ عن الجزاءِ العادل بين العباد.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:

جاء الفعلُ (وُضِعَ) مبنيًّا للمفعولِ، لعدم الحاجة لذكرِ الفاعل، فإنَّ الآمرَ بذلك هو اللّهُ تعالى، فجاء على طريقِ الإيجازِ؛ فإنَّ طيَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 145، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 66.
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن: (وضع).

الفاعل إيجازٌ لفظيٌّ، وذلك لنقل ذهنِ القارئ مباشرة إلى الشَّيء الَّذي وُضِعَ؛ إذ يصوِّر المشهد الكتاب، باعتبارِهِ كيانًا ماديًّا حاضرًا ومهيبًا، ممّا يُضفي شعورًا بالرَّهبة والوقار في مشهد الحساب، وهو يشيرُ إلى حضورِهِ البارز، وكأنَّه محورُ هذا المشهد العظيم.

وضْعُ الكتابِ يضفي على المشهد شعورًا بالرَّهبة

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

تعريفُ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ للجنسِ، أي: وُضِعَتِ الكُتُبُ، وهي صحائفُ أعمال العباد، وأحضرت للحساب بما فيها مِن صالحٍ وسيِّئٍ[1]، ويجوز جعلُ الكلام تمثيلًا واللّام هنا للاستغراق، وأمّا إن كان معنى الكتاب اللَّوح المحفوظ، وُضِعَ ليقابل به الصَّحائف، فلامُهُ للعهد، ولا يظهر في هذا الأخير معنى التَّوعُّد، الَّذي هو مقصدُ الآية[2]، والكتاب هنا يُشير إلى سجلّات الأعمال، ووضْعُهُ يوحي بتقديم الأدلَّة والبراهين أمام النّاس للحساب، ممّا يبرز المسؤوليَّة الشَّخصيَّة للإنسان أمام الله تعالى.

تقديمُ الأدلَّة والبراهين تبرز المسؤوليَّة الشخصيَّة للإنسان

وظيفةُ الواو العاطفةِ:

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للعطف، وتفيدُ الرَّبط بين الأحداث في سياق مشهدِ يوم القيامةِ، والعطفُ هنا يشير إلى أنَّ مجيءَ النَّبيّين جزءٌ من سلسلة مترابطةٍ مِن أحداث يوم القيامةِ، مِن إشراقِ الأرض إلى وضعِ الكتاب، فالرَّبطُ بالواو يوحي بترابطِ الأحداث، وتكامل في موقفٍ عظيم؛ إذ تُجمع كلُّ الأطراف، الكتاب الشّاهد المكتوب، والنَّبيّون الشُّهود العقلاء، ممّا يُعزِّز صورةَ المحاسبة الكاملة.

تسلسلُ الأحداثِ الغيبيَّة وربطُها بغايةِ الحساب

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبني للمفعولِ:

جاء فعلُ المجيء في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مبنيًّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 285.

للمفعول؛ للعنايةِ بالحدث نفسِهِ الَّذي هو إحضار النَّبيّين والشُّهداء لتعظيم المشهدِ، وإبرازِ أهمّيَّته دون الحاجةِ لذكر الفاعل، فهذا الاستخدامُ يُظهر الهيبةَ والرَّهبةَ في سياق يوم القيامة؛ إذ تتجلّى عظمةُ الموقف، فالإحضارُ لا يكون إلّا بأمر الله تعالى وقدرته، فالتَّركيزُ على النَّتيجة لا على الكيفيَّة، ممّا يترك مجالًا للتَّأمُّل في عظمة الحدث.

توجيهُ الأنظار لمجيءِ النَّبيّين وغايةِ الإحضار

نوعُ الباءِ ومعناها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للتَّعدية، وقد تُفيد المصاحبة، وهي تعني: انضمامَ شيءٍ إلى آخر، انضمامًا يقتضي تلازمهما، فيما يقع عليهما أو منهما، وهي باءٌ تُستخدم في هذا السّياق؛ للدَّلالة على أنَّ الإتيان لم يكن مجرَّدَ إحضارٍ للنَّبيّين وحدَهم، بل هو إحضارٌ لهم، ومعهم دورٌ عظيم أو غاية محدَّدة في ذلك الموقف، وهو إقامة الحجَّة والشَّهادة على أقوامهم يوم القيامة.

إحضارُ النَّبيّين لأداءِ وظيفةِ الشَّهادة على الأقوام

معنى تعريفِ لفظ ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

التَّعريفُ في لفظ النَّبيِّن في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، يحتمل أن يكونَ للجنس؛ لتشيرَ إلى جميع الأنبياءِ على الإطلاق، أي: تشملُ كلَّ مَن بعثَهم الله تعالى إلى البشريَّة منذ آدمَ عليه السلام، وحتى خاتم الأنبياء محمَّد ﷺ، ودلالة الشُّمول لجميع الأنبياء يؤيِّدها ذلك المشهدُ العظيم، ممّا يبرزُ أهمّيَّة مكانتهم وأثرهم في إقامة الحجَّة والعدل بين الناس، ويحتمل أن تكونَ للعهدِ في ذهن السّامع، مقصودًا بها الأنبياء المعروفون الَّذين أُرسلوا إلى أقوامِهم.

جميعُ النَّبيّين حاضرون للشَّهادة على أقوامهم

نكتةُ تقديم وضع الكتابِ على الإتيان بالنَّبيّين:

قُدِّم ذِكرُ وضعِ الكتاب على مجيء النَّبيّين في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ لتقديم الوسيلةِ المكتوبة على المسموعةِ، فالتَّقديمُ يظهرُ محوريَّةَ الكتاب في الحساب، ويُبيِّن أنَّه

تقديمُ الدَّليل المكتوبِ على الدَّليل المسموع

المرجع الأساسُ للحكم؛ لاحتوائهِ على أعمال كلِّ فردٍ، ومنهم الأنبياءُ والشُّهداء، وفي التقديم ترتيبُ البراهين لإقامة الحجج، فقُدِّمَ الكتاب أوَّلًا؛ لأنَّه يتضمَّن الحساب الشّامل الَّذي يخضع له الجميعُ، ثمَّ يُؤتى بالنَّبيّين والشُّهداء، ويُحضرون لاحقًا كحُجَّة وشهادة على أقوامِهم، وهذا التَّقديم يُجلّي كمالَ عدلِ الله ﷻ، فهو لا يحتاجُ إلى شهادةٍ؛ كي لا يكونَ للنّاس حجَّةً على الله تعالى، حينها يجعل حضور النَّبيّين والشُّهداء تأكيدًا وبيانًا على عدالةِ الموقف، فالكتابُ هو الحاكم الأوَّلُ قبلَ أيِّ شهادةٍ أخرى، وأفاد التَّقديمُ ترتيبَ مراحلِ الحساب في مشهد مرتَّبٍ ومنظَّمٍ.

نكتةُ عطف (الشُّهداء) على (النَّبيِّين):

عُطِفَ لفظُ (الشّهداء) على (النّبيين)؛ لاجتماعِهما في إقامةِ الحُجَّة؛ فالعطف يقتضي التّغاير بين الفريقيْن مع الاشتراك في المجيء.

معنى تعريف لفظِ (الشُّهداء):

التَّعريفُ في لفظِ الشُّهداءِ في قولهِ ﷻ: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، إمّا أن يكونَ دالًّا على الجنس، فهي تشيرُ إلى عموم الشُّهداء، أي: جميع مَن ينطبقُ عليهم وصفُ الشَّهادة، كالشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيلِ الله، والشُّهداء على أعمال النّاس يوم القيامةِ، كالحفظةِ والكتبةِ والملائكة، وشهداء البشرِ الَّذين يشهدون على أقوامِهم، كأمَّة محمَّد ﷺ الَّتي تشهدُ على الأممِ الأخرى، وأعضاء الإنسان نفسه، وهذا يقرِّرُ عظمةَ المشهد، ويبرزُ الدَّورَ الكبير للشَّهادة في إقامة الحجَّة على الخلق يوم القيامةِ.

الشُّهداءُ في القيامةِ أدوات إقامة الحجَّة وجزاء العبادِ

وإن جعلتَ (ال) للعهد، فهي تشيرُ إلى شهداء معهودين؛ أيْ: معروفين ضِمن السّياق، كالأنبياء الَّذين يشهدونَ على أممهم، وأمَّة محمَّد ﷺ لتشهد للأنبياء على أقوامِهم، والملائكة والشُّهداء على الأعمال الَّذين ذُكروا في مواضع متفرِّقة مِنَ القرآن.

بلاغةُ استعمالِ لفظ (الشُّهداء):

صيغةُ جمعِ الشُّهداءِ فيها من الفخامةِ ما لا يوجد في الشُّهود

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة جمعِ (الشُّهَداءِ)، دون (الشهود)، وهم الَّذين يُؤتى بِهم في ذلك الموطنِ المهيب؛ لتأكيد ما جاء في الكتاب، فذكرَ مِنهم الشُّهداء وهو جمعُ شهيد، وهو الشّاهد، وأصلُهُ يَدُلُّ عَلى حُضورٍ وعِلمٍ وإعلام؛ ليدليَ بشهادته في المشهدِ الذي هو مَحضَرُ النّاسِ[1]، وعدلَ عنِ التَّعبير بجمع القلَّة (الشُّهود)؛ لما يكونُ عليه زيادة العدد المطلوبِ في الشَّهادة، من إثباتِها وعدم القدرة على دفعِها، فالشُّهداء هم الَّذين وُكِّلوا بالمكلَّفين، فشاهدوا أعمالهم، فشهدوا عليها، مع ما في صيغة الجمعِ من التَّفخيم والتَّعظيم.

نكتةُ تقديمِ النَّبيّين على الشُّهداء:

تبليغُ النَّبيّين للرِّسالات هو الأصل في وجود الشُّهداء

قُدِّم ذِكرُ النَّبيّين على الشُّهداء في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ وذلك أنَّ النَّبيّين لهم الرُّتبة العليَّة، والشُّهداء سواء أكانوا مِنَ الملائكة أو البشر أو الأعضاء، أو ما هو أعمُّ من ذلك؛ فإنَّ رتبتَهم دونَ رتبةِ النَّبيّين، فالأنبياءُ هم أعلى مقامًا وأعظمُ منزلةً عند الله من عموم الشُّهداء، فهُم الَّذين اصطفاهم الله لتبليغِ رسالته وإقامة الحجَّة على النّاس؛ لأنَّهم أوَّلُ الشُّهود وأولاهم، وأكثرُهم أهليَّة لإقامة الحجَّة، كما يلحظ في ذِكر النَّبيّين أوَّلًا إثارةَ شعورِ العظمة والجلال في ذهن السّامع، فالأنبياءُ يمثِّلون الأصلَ في التَّبليغ والهداية، فهُم الَّذين وضعوا أُسس الرِّسالة، والشُّهداء يمثِّلون الشَّهادة على أفعال الأمم.

فائدةُ استعمالِ مفردة ﴿وَقُضِيَ﴾ ودلالتها الشُّموليَّة:

شمولُ القضاءِ لجميع المراتب والحقوق

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ ﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما سيصدرُ في حقِّ العبادِ هو قضاءٌ حتميٌّ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

فيدخلُ فيه الفصلُ؛ إذ دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَقُضِيَ﴾، أي: صدر القضاء فيهم بما يستحقون، وهو مُسمّى الحقِّ، فمِن القضاء ما هو فصل بين الناس، في معاملات بعضِهم مع بعضٍ، مِن كلِّ ظالمٍ ومظلومٍ، ومعتدٍ ومعتدى عليه، في اختلاف المعتقدات، واختلاف المعاملاتِ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 124]، ومن القضاءِ القضاءُ على كلِّ نفسٍ بما هي به حقيقة من مرتبةِ الثّواب أو العقاب، وهو قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فقضاءُ اللّه هو القضاء العام، الذي لا يقتصر على أنصافِ المتداعين، كقضاء القاضي، ولكنَّه قضاءٌ على كلِّ نفسٍ فيما اعتدت، وفيما سلكت، وفيما بدَّلت، ويزيد على ذلك بأنَّه قضاءٌ على كلِّ نفسٍ بما اختلت به مِن عملٍ، وبما أضمرته من ضمائر، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، وإلى ذلك تشير المراتبُ الثَّلاث في الآية مرتبة: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ومرتبة: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، ومرتبة وهو ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿وَقُضِيَ﴾:

حتميَّةُ القضاءِ توجبُ حتميَّة الحساب والجزاء

جاء فعل ﴿وَقُضِيَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول؛ للعلم بالَّذي يقضي بين العبادِ، وهو اللّهُ الواحد الأحد، القاضي بين الخلائقِ بعدل تامٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 124]، والفعل الماضي هنا بمعنى المُستَقبَل، تَنزيلًا لِتَحَقُّقِ وُقوعِهِ مَنزِلةَ الوُقوعِ بالفعلِ، وكأنَّ الأمرَ قد وقع ومضى[2] على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة بتشبيه ما سيكون بما مضى بجامع التّحقّق، كما أنَّ هذه الصّيغةَ توحي بعظيم شأنِ القضاءِ بين العبادِ، لعلَّهم يتركون المظالم فيما بينهم، ويُعطون الحقوقَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67 - 68.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 416.

لأصحابِها، ويؤدّون ما عليهم من واجباتٍ، فإنَّ حتميَّةَ وقوعِ القضاء يوجب حتميَّةَ الحساب والجزاء على الأفعال.

براعةُ ترتيب الأحداث في مشهد القضاء:

الـتَّرتـيـبُ بين أحداث القضاء قـائـمٌ عـلى ما يعهده النّاس في الدُّنيا

آثر النَّظمُ الكريم تأخيرَ ذِكر القضاء بين العباد في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ إذ اقتضى المشهدُ تسلسلَ أحداثِه وترتُّبها، فالآيةُ تصوِّر مشهدَ يوم القيامة بما سيكون فيه مِن أحداثٍ يظهر فيها التَّسلسل؛ إذ تبدأُ بوضع الكتاب؛ فمجيء النَّبيّين والشُّهداء، كشهود تأكيدٍ وبيانٍ وإظهار للحجَّة على الأمم، ثم يُختم المشهد بإصدار القضاءِ الَّذي يأتي بعد استيفاء الحُجَّة وتقديم الأدلَّة، وهذا التَّرتيب يتجلّى فيه كمالُ العدلِ الإلهيِّ المبنيِّ على العلم التامِّ والحجَّة البالغة، فليس ثمَّةَ قضاءٌ إلّا بعد تقديم كلِّ الحُجج وتثبيت الأدلَّة، ولا يخفى ما في هذا المشهد من تهيئة نفسيَّة من خلال ربْطِ القضاء بعدم الظُّلم، وتأخيره في الذِّكر؛ ليكونَ أقرب إلى نفي الظُّلم في سياق الآية.

دلالةُ استعمال الظَّرف:

الـقـضـاءُ بين العباد بالحقِّ يشمل الجميع

جاء ذِكرُ الظَّرف (بين) في قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بين العباد، مِن أهل الجنَّة والنّار، ولم يقل: (وقُضي بالحق)؛ ليقعَ تقييدُ الفعل بكونهِ بين العباد، وذلك في الفصل بينهم والقضاء لكلٍّ بحقِّه[1]، والظَّرف إما أن يدلَّ على المكان، أو الحالة الَّتي يحدث فيها القضاءُ؛ إذ (بين) ظرف في الأصل، يدلُّ على المكان، وقد يدلُّ على الزَّمان[2]، أي: إنَّ القضاءَ سيحدث بين جميع الأطراف، ويكون ذلك في إطار الحقِّ الَّذي يتضمَّن العدالة التّامَّة، كما يُبرز هذا التَّصويرُ القضاءَ الإلهيَّ وكيفيَّة جريانه بحضور الجميع؛ إظهارًا

(1) الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر، ص: 385.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 209.

للمواجهة المباشرة بين المتخاصمين، حيث تُرد المظالم، ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

فـواتُ المظالمِ من فوائت يوم القيامة

يرجعُ الضَّمير في قولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إلى الجماعات المذكورةِ في سياق الآيات السّابقة، وهم عمومُ أهل المحشر[1]، ودلالةُ العودِ لهذا الضَّمير تشيرُ إلى شموليَّة القضاء، ولم يذكر السّياق جميعَ الفئات الَّتي يتناولها القضاءُ؛ لما في ذلك من إفادة الإيجازِ البلاغيِّ، مع الاحتفاظ بشموليَّة المعنى، وليس خافيًا جماليات السّياق من حيثُ ربطُ السابق باللاحق بطريقةٍ تتجلَّى فيها عظمةُ المشهد.

نوعُ الباء ودلالتها:

ملازمةُ القضاء للحقِّ والتحامُهما التّامُّ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ للإلصاق، وهو أصلُ معاني الباء، وذلك نحو قولِك: أمسكتُ زيدًا، يحتمل أن تكونَ باشرته نفسه، ويحتمل أن تكونَ منعتُهُ من التَّصرُّف من غير مباشرةٍ له، فإذا قلت: أمسكتُ بزيدٍ، فقد أعلمتَ أنَّك باشرتَهُ بنفسك[2]، فالباء في الآية للإلصاق الحقيقيِّ، وهي تعبيرٌ دقيق عن ملازمة القضاء للحقِّ والتحامهما التّام، بحيثُ لا يصدر الحكم إلّا متلبِّسًا بالعدل الخالص، وهذا الإلصاقُ يُظهر أنَّ الحقَّ ليس مجرَّد معيار نظريٍّ، بل هو العنصرُ الفاعل الَّذي التصق بالقضاء في تنفيذه، فصار القضاءُ والحقُّ شيئًا واحدًا لا انفكاك بينهما، وهذا السّياق يتجلّى فيه الإعجازُ البلاغيُّ المُظهر لكمال العدالة في الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 304، والمبرد، المقتضب: 4/ 142.

معنى تعريف لفظِ (الحقّ):

حقُّ الآخرة حقٌّ مطلق كامل

تعريفُ لفظ (الحق) في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ للجنس، فهي بيانُ حقيقةِ جنس الحق، وبيان ماهية الحقِّ؛ فالسّياق يشير إلى أنَّ القضاء قد تمَّ وفقَ الحقيقةِ المطلقة للعدلِ الَّذي ينطبق على كلِّ حالةٍ دون تخصيصٍ أو ارتباط بحالة سابقة أو عهد معيَّن، وقد لوحظ في السّياق جنس الحقِّ ذاته الَّذي هو الحقُّ المطلق من اللّه تعالى.

نوع الواو ودلالتها:

تعزيزُ الثِّقة بعدالة القضاء

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هي واو الحالِ، وهي تفيد الرَّبطَ بين الجملة الحاليَّةِ والجملة السّابقة، فتُبيِّن حالَ العباد أثناء القضاءِ بينهم[1]، ودلالتُها إفادةُ أنَّ القضاءَ بالحقِّ يتمُّ في حالة من كمال العدل الإلهي، بحيثُ لا يُظلم أحدٌ أثناء ذلك، وتؤكِّد الجملة الحاليَّة أنَّ الظُّلم - وهو ضدُّ العدل - منفيٌّ تمامًا عن اللّه في كل لحظة من لحظات القضاء في هذا المقام، فالثِّقة بعدالة القضاء مرجعُها الكمال الإلهي في العدالة بين المخلوقين.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه على النَّفي والمسند الفعليّ:

تقوية المعنى وترسيخ الحقيقة في ذهن المتلقي

قُدِّم المسند إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ لتقوية الحكم وتوكيده، وإبراز أهمّيَّة الذَّوات المعنيَّة بالحكم، وهو تأكيد بأنَّ الظُّلمَ منفيٌّ عن العبادِ تمامًا، وأن السّياق يجعل تركيزَ المستمع والقارئ على النَّفي نفسه، وإعطائه أهمّيَّة كبرى؛ ليستقر في خلده يقينًا أنَّ اللّه تعالى لا يظلم أحدًا أبدًا، وهذا الختمُ للآية هو أكثر انسجامًا مع سياق المشهد الَّذي قرَّر في لحظة من لحظاتهِ عدل اللّه تعالى ورحمته بعبادهِ، والتَّقديم للمسندِ إليه يُؤتى به عادةً لتقوية المعنى، وترسيخه في ذهن المتلقي، ممّا يُضفي جماليَّة معنويَّة على النَّصِّ القرآنيِّ.

(1) ابن مالك شرح التسهيل: 2/ 359، والأشموني، شرح الأشموني: 2/ 36.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الظُّلم مادَّة وصيغة:

بيانُ عدالةِ الله المطلقة مع عباده

جاء التَّعبيرُ بنفي الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الذي هو وضع الشَّيء في غير موضعه؛ لأنَّ المقصودَ نفْيُ كلِّ ما يتصوَّره الإنسانُ في الدُّنيا من وقوع الظُّلم بكافّة أنواعه وأشكاله، وآثر التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُظْلَمُونَ﴾؛ لاستحضار الصّورة من ناحية وهم يقفون في ذلك اليوم العظيم دون أن تُهضم حقوقهم، وللدّلالة على التّجدّد الاستمراريّ في استمرار عدل الله وبقائه، وفي هذه الآية من المناسبةِ بينَ مَطلَعِها وخاتمتِها ما يُشعر بالانسجام العامِّ لجو المشهد الذي أضفتْهُ خاتمةُ سورةِ الزُّمر للحديث عن يوم القيامةِ ومشاهدِ الحسابِ، والآيةُ تأتي في إطار بيان عدالةِ الله المطلقةِ مع عبادهِ، ممّا يجعل المناسبةَ بين العدل ونفي الظُّلم أمرًا جوهريًّا في فهْم مشهد الحساب، فبعدَ إثبات العدل، يأتي نفْيُ الظُّلم لتُكمل الصّورةُ العدلَ الإلهيَّ، ولا يترك مجالًا للظُّلم، سواء بزيادة في العقابِ أم نقصان في الثّواب[1].

نكتةُ عطفِ التَّوفية على القضاء بين العباد:

تدرُّجُ الأحداث وترتيبُها يُبرز معالمَ العدالةِ الإلهيَّة

عطفَ النَّظمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ على الآية السابقة؛ إذ تتحدَّث عن القضاء بين النّاس بالحقِّ في قولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، ثمَّ تأتي الواو لتبيِّن نتيجةَ هذا القضاءِ، وهي توفيةُ كلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، وتظهر الواو الدَّلالة البلاغيَّة، وهي تدرُّج الأحداث وترتيبها؛ إذ إنَّ التَّوفيةَ على الأعمال تأتي عقب القضاءِ الإلهيِّ، فهي مرحلةٌ لاحقةٌ مرتبطةٌ به، وهي تربط بين مشهد القضاءِ الَّذي يوحي بالهيبة والرَّهبة، ومشهد الجزاء الَّذي يوحي بالدِّقَّة والتَّفصيل، وهذا كلُّه يبرزه السّياق إظهارًا لكمال العدل الإلهيِّ المطلق.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 145.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتوفيةِ مادَّة وصيغة:

إحاطةُ الجزاءِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرة من أفعال الإنسان

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال فعل ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ صيغ للمفعول؛ للدَّلالة على تحقُّق الكمال والتَّمام للوفاء والجزاء من الله تعالى، فالتوفيةُ دالَّةٌ على إعطاء الشَّيء وافيًا لا نقص فيه عن الحقِّ في إعطائه ولا عن عطاء أمثالِهِ[1]، والفعلُ متضمِّن الإتمام للجزاء، كما في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: 30]، فدلَّ فعل التَّوفية على الكمال والتَّمام في القضاء والجزاء، وأنَّه لا يضيع حقُّ أحدٍ مِنَ العباد، وبُنِي الفعل للمفعول للعلم بالفاعل في ذلك اليوم، وهو اللهُ تعالى، وللاهتمام بالجزاء الموفَّى، الَّذي تناله كلُّ نفس جزاء عملها كاملًا وبالتَّمام، سواء كان خيرًا أم شرًّا، دون أيِّ زيادةٍ أو نقصان، وهو مناسب لسياق مشهد يوم القيامة.

نكتةُ ذكرِ أداة العموم ﴿كُلُّ﴾:

استغراقُ الأفرادِ في الحساب كلٌّ بحسبِ أعماله

ذكرَ النَّظمُ الكريم أداةَ العموم ﴿كُلُّ﴾، وهي اسمٌ يفيد الاستغراقَ والإحاطة بالأفراد والأجزاء، وهي أقوى صيغِ العموم؛ لصحَّة دخولها على العاقل وغيره، كما أنَّها تتناول النَّكرات والمعارف، وهي موضوعةٌ أصلًا لعموم الشُّمول، وهو أن تتناول كلمةُ العموم أفرادَ ما دخلت عليه عموم شمولٍ[2].

نكتةُ تنكير لفظِ ﴿نَفْسٍ﴾:

كلُّ نفسٍ تقع عليها رهبة الحساب ومسؤوليَّة الجزاء

جاء لفظُ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ نكرةً لإفادة الإطلاق والعموم، وليشملَ كلَّ نفسٍ دون استثناءٍ، وليؤكِّد أنَّ اللهَ تعالى سيُحاسب كلَّ نفسٍ على عملها بمفردها، فلا يحمل أحدٌ وزرَ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، وهذا السّياق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 68.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 62، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 138.

في هذا المشهد المهيب يختارُ هذه الكلمة؛ ليُضفي شعورًا بالرَّهبة والتَّأمُّل والهيبة والتَّشويق؛ إذ يوحي بأنَّ الجزاء شامل ودقيق، ويضع كلَّ قارئٍ للآية أمام مسؤوليَّتِهِ الفرديَّة، ممّا يدفعُهُ للتَّفكير في عواقب أعمالِهِ، وقد استغرق العمومُ كلَّ الأفرادِ استغراقًا شاملًا بإضافة أداةِ العموم ﴿كُلُّ﴾ إلى ﴿نَفْسٍ﴾.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ مضافٌ محذوف، أي: جزاء ما عملت؛ لظهور أنَّ ما عمله المرءُ لا يوفّاه بعد أن عملَهُ، وإنَّما يوفّى جزاءه[1]. وكذلك حُذف مفعول العمل؛ والتّقدير: (جزاء ما عملته)؛ وذلك لإنزال الفعل المُتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم؛ ليعمّ كلّ عملٍ عملته هذه النّفس.

نكتةُ استعمال ﴿مَّا﴾ المصدرية:

جـزاءُ كـلِّ نفس مرهونٌ بكسبها عـــلى وجـــه الخصوص

استعملتِ الآيةُ الأداة ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، وهي وما بعدها بتأويل مصدرٍ في محل نصب مفعول به[2].

فالجملةُ تشير إلى أنَّ كلَّ ما عملَهُ الإنسان في الدُّنيا، مِن خير أو شرٍّ، صغيرًا كان أو كبيرًا، سيكون حاضرًا يوم القيامة ويجازى عليه، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: 7]، وكذلك توظيفُ ﴿عَمِلَتْ﴾ بدلًا من كلمة (العمل) المجرَّدة يُضفي قوَّةً معنويَّة؛ إذ يُبرز الفعليَّة والفاعليَّة فيما كسبته النَّفس بنفسها، وتؤكِّد عدالةَ اللّٰه المطلقة في جزاء النَّفس على ما قدَّمته بنفسها، مع الشُّموليَّة والدِّقَّة في الحساب.

نوعُ الواو ومعناها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ إمّا أن تكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 68.
(2) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 217.

عاطفةً على ما سبق، أو حاليَّة، والجملة بعدها حاليَّةٌ، لتقرير علم اللّه المحيط بأفعال العباد؛ تأكيدًا يعمُّ كلَّ ما يفعلونه.

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة:

العلمُ الإلهيُّ ثابتٌ مطلقٌ يشملُ كلَّ المخلوقات

أفادتِ الجملةُ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدَ ثبوتِ وصف العلم المطلق للّه تعالى، فالبارئُ تَعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، يَعلَمُ ما كانَ وما يكونُ، ولا يُقَدَّرُ شيءٌ إلّا وهو عالمٌ به، والسّياقُ اقتضى الجملة الاسميَّة الدّالَّة على الاستمراريَّة والثَّبات؛ لما فيها مِن مناسبة علمِ اللّه، كما أنَّ هذا التَّعبيرَ يبرز إحاطةَ اللّهِ الكاملة بأفعال عبادِه، ظاهرها وباطنها، دون أن تخفى عليه خافيةٌ، سواء في نيّاتِهم أو أعمالهم الظّاهرة، ويضيف هذا التَّركيب توجيهًا للإنسان بأن يراقب نفسه في كلِّ أفعاله؛ إذ إنَّ العلمَ الإلهيَّ محيطٌ بكلِّ ما يصدر عنه، ممّا يعمِّق الإحساسَ بمراقبةِ اللّه، ويعزِّز مِن رهبةِ الوقوف بين يديه يوم الحساب.

نكتةُ استعمالِ صيغة أفعل التفضيل:

اسمُ التَّفضيلِ مسلوب المفاضلة بقصد المبالغةِ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بصيغة أفعل التَّفضيل، وهي هنا مسلوبةُ المفاضلة؛ لأنّه لا يوجد مَن يُقارب اللّه تعالى في علمه؛ فالمقصودُ منها بيانُ المبالغة في الوصفِ بغرضِ إثبات العلم للّه تعالى وحدَه، واختصر هذا المعنى عطاء بن أبي رباح رحمه اللّه فقال: "يريد أنّي عالم بأفعالِهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد"[1]، فلا معنى للمفاضلةِ بين علم اللّه وعلم العباد؛ لأنَّ علمَ اللّه مطلقٌ وكامل لا يعزب عنه مثقال ذرَّة، بينما علمُ العباد محدودٌ ناقص، والغرضُ مِن التَّعبير الإشارةُ إلى شموليَّة علم اللّه، ودقَّته في معرفة ما يفعل العباد، سواء أظهروا أم أخفوا أفعالهم، فهو يحمل دلالةً

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 132.

تأكيديَّة لعظمة علم الله، وليس مقارنة بينه وبين أحدٍ، فلا يقصد مِن هذا النَّظم القُرآني معنى المفاضلة بل المبالغة.

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

إحاطةُ علمِ الله المطلق بأعمال البشر

السّياقُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، جاءت (ما) اسمًا موصولًا مجرورًا بحرف الجرِّ الباء، والجملة الفعليَّة: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ هي صلةُ الموصول، وهي جملةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعراب؛ لأنَّها مكمِّلة لمعنى الاسم الموصول، والغرض من التّعبير بالاسم الموصول وصلته هنا هو التّعميم، فهذه الجملة تبيِّن مضمون العلم الإلهيِّ، الَّذي يشملُ أفعالَ العباد جميعها، سواء كانت ظاهرةً أم باطنةً، ماضية أم مستمرَّةً.

لطيفةُ استعمال فعل ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

الأفعالُ التي يُداوم عليها الإنسانُ أشدُّ حسابًا وأعظم جزاءً

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردةِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وهو فعلٌ مضارع من الجذر الثُّلاثي (فعل)، وجاء مجموعًا، على صيغة الأفعال الخمسة، وهذه الصيغةُ تحمل دلالات واسعة، تتعلَّق بذات السياق، فهو دالٌّ على العمل الشّامل والعام دون تخصيصِ نوعٍ معيَّن؛ ليشمل كلَّ ما يصدر عن الإنسان ظاهرًا وباطنًا، وهذه الصّيغة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ – الدالَّةُ على التَّجدُّد والحدوث – صادقة في كلِّ ما كان له تأثير من جهة مؤثِّر، وذُكِرَ الفعلُ دون العملِ؛ هو من باب التّخويف والتّحذير لهم؛ فالفعل يشمل ما كان مقصودًا أو غير مقصودٍ من الأعمال، ليتَّسق الأمر مع ما استمرّوا عليه من أفعالهم، فالأفعال المقصودة هي الأفعال التي كانت ديدنهم في حياتهم، لا الأفعال التي هي أقربُ إلى الأفعال الجبلّيَّة، فالأفعال نوعان: أفعالٌ جبلّيَّة طبعيَّة، وأفعال ناشئة عن سلوكٍ معتاد، يداوم عليها الإنسان حتى تُصبح فعلًا يُشابه الأفعال الجبلّيَّة، وهذه أشدُّ وطأةً، وأعظم عقابًا وثوابًا من غيرها.

نكتة حذف مفعول ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

بلاغةُ الحذفِ مدعاةٌ لزيادة التَّأثير النَّفسي والتربوي

حُذِفَ مفعول فعل ﴿يَفْعَلُونَ﴾؛ وذلك لما في الحذف من الإيحاء بالشموليَّة والتَّعميم؛ فالحذف يَترك المجال مفتوحًا أمام جميع أنواع التَّقديرات للمفعول من الأعمال الَّتي قد يصدرها النّاس، فحذْفُ المفعولِ يجعل المعنى أكثرَ شمولًا، بحيثُ يعبِّر عن عِلم اللّه بما يفعلون في جميع المواقفِ والأحوال دون تحديد نوع الفعل أو محدوديَّته، ولا يخفى ما في حذف المفعول من رشاقة العبارة واختصارها، والتَّركيز على الفعل نفسِهِ، بدل المفعول؛ لتحفيز الذِّهن على التَّفكير والتَّأمُّل في شموليَّة هذا العلم، ممّا يسهم في زيادة التأثير النَّفسي والتَّربوي.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»